الباب السابع العشرون: في العجب، والكبر، والخيلاء، وما أشبه ذلك

اعلم أن الكبر والإعجاب يسلبان الفضائل، ويكسبان الرذائل. وحسبك من رذيلة تمنع من سماع النصح، وقبول التأديب، والكبر يكسب المقت، ويمنع من التكلف. قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر». وقال رسول الله ﷺ: «من جَرّ ثوبه خيلاء لا ينظر الله إليه». وقال الأحنف بن قيس: ما تكبر أحد إلا من زلة يجدها في نفسه. ولم تزل الحكماء تتحامى[1] الكبر، وتأنف منه. ونظر أفلاطون إلى رجل جاهل معجب بنفسه. فقال: وددت أني مثلك في ظنك، وأن أعدائي مثلك في الحقيقة. ورأى رجلٌ رجلاً يختال في مشيه. فقال: جعلني الله مثلك في نفسك، ولا جعلني مثلك في نفسي. وقال الأحنف: عجبت لمن جرى في مجرى البول مرتين كيف يتكبر. ومرّ بعض أولاد المهلب بمالك بن دينار وهو يتبختر في مشيه. فقال له مالك: يا بني لو تركت هذه الخيلاء لكان أجمل لك. فقال: أو ما تعرفني؟ قال: أعرفك معرفة جيدة، أوّلك نطفة مدرة[2] وآخرك جيفة قذرة، وأنت بين ذلك تحمل العذرة، فأرخى الفتى رأسه، وكف عما كان عليه. وقال: لا يدوم الملك مع الكبر، وحسبك من رذيلة تسلب الرياسة، والسيادة.

وأعظم من ذلك أن الله تعالى حرم الجنة على المتكبرين فقال تعالى: ﴿**تلك الدارُ الآخرةُ نجعَلُها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً**﴾[3]. فقرن الكبر بالفساد وقال تعالى: ﴿**سأصرفُ عن آياتي الذين يتكبَّرون في الأرضِ بغيرِ الحقِّ**﴾[4] قال بعض الحكماء: ما رأيت متكبراً إلا تحول ما به، بي، يعني أتكبر عليه.

واعلَمْ أنّ الكبر يوجب المقت، ومن مقته رجاله لم يستقم حاله. والعرب تجعل جذيمة الأبرش غاية في الكبر. يقال: إنه كان لا ينادم أحداً لتكبُّره، ويقول: إنما ينادمني الفرقدان. وكان ابن عوانة من أقبح الناس كبراً، روي أنه قال لغلامة: اسقني ماء. فقال: نعم. فقال: إنما يقول نعم من يقدر أن يقول لا، اصفعوه فصفع، ودعا أكارا[5] فكلمه، فلما فرغ دعا بماء فتمضمض به استقذاراً لمخاطبته. ويقال فلان وضع نفسه في درجة، لو سقط منها لتكسر. قال الجاحظ: المشهورون بالكبر من قريش، بنو مخزوم، وبنو أمية، ومن العرب بنو جعفر بن كلاب، وبنو زرارة بن عدي. وأما الأكاسرة فكانوا لا يعدون الناس إلا عبيداً، وأنفسهم إلا أرباباً. وقيل لرجل بن بني عبد الدار: ألا تأتي الخليفة؟ فقال: أخاف أن لا يحمل الجسر شرفي. وقيل للحجاج بن أرطاة: ما لك لا تحضر الجماعة؟ قال أخشى أن يزاحمني البقالون. وقيل: أتى وائل بن حجر إلى النبي ﷺ فأقطعه أرضاً، وقال لمعاوية: اعرض هذه الأرض عليه

---

(١) تتحامى: تبتعد عنه.
(٢) مدرة: فاسدة.
(٣) سورة: القصص، الآية: ٨٣.
(٤) سورة: الأعراف، الآية: ١٤٦.
(٥) أكارا: الحمّال على الحمار.

وأكتبها له. فخرج معه معاوية في هاجرة شديدة، ومشى خلف ناقته، فأحرقه حر الشمس فقال له: اردفني خلفك على ناقتك، قال: لست من أرداف الملوك. قال: اعطني نعليك. قال: ما بخل يمنعني يا ابن سفيان، ولكن أكره أن يبلغ أقيال اليمن[1] أنك لبست نعلي، ولكن امش في ظل ناقتي فحسبك بها شرفاً. وقيل: إنه لحق زمن معاوية ودخل عليه فأقعده معه على السرير وحدثه. وقال المسرور بن هند لرجل: أتعرفني؟ قال: لا، قال أنا المسرور بن هند. قال: ما أعرفك. فتعساً ونكساً لمن لم يعرف القمر. قال الشاعر:

قولا لأحمقَ يلوي التيهُ أخدعَهُ[2] ... لو كنتَ تعلم ما في التيه لم تَتِهِ

التيهُ مفسدةٌ للدين، منقصةٌ ... للعقلِ، مهلكةٌ للعرض فانتَبِهِ

وقيل: لا يتكبر إلا كل وضيع، ولا يتواضع إلا كل رفيع، والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) ملوكها وواحدهم: قيل.

(٢) الأخدع: عرق في الرقبة.

obeikandl.com